**أبو يعقوب يوسف السكاكي(ت626ھ ).**

**أ - الفصاحة والبلاغة :**

استقلت الفصاحة عند السكاكي(1)، وأصبح لها ميدانها الخاص، فقد قسمها إلى قسمين، فيقول: " اما الفصاحة فهي قسمان: راجع الى المعنى وهو خلوص الكلام عن التعقيد (\*)، وراجع الى اللفظ وهو أن تكون الكلمة عربية أصيلة، وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعروبيتهم أدور، واستعمالهم لها أكثر، لا مما أحدثها المولدون، ولا مما أخطأت فيه العامة، وأن تكون أجرى على قوانين اللغة، وأن تكون سليمة عن التنافر"(2) .

ما ذكره السكاكي في النص إشارة لعدد من المقاييس، لكن تأخير الكلام عن تلك المقاييس، وجعلها على هامش البحث البلاغي لم يرق للخطيب القزويني، يقول : "جعل الفصاحة غير لازمة للبلاغة، وحصر مرجع البلاغة في الفنين، ولم يجعل الفصاحة مرجعا لشيء منه"(3) .

**ب - الإيجاز،والإطناب، والمساواة :**

يبين السكاكي، بأن الإيجاز والإطناب من الأمور النسبية؛ لذلك يعتذر عن تعريفها بقوله: " أما الإيجاز والإطناب فلكونهما نسبيين، لا يتيسر الكلام فيهما إلا بترك التحقيق والبناء على شيء عرفي، مثل جعل كلام الأوساط على مجرى متعارفهم في التأدية للمعاني فيما بينهم "(4)، وإذا اقتفينا أثر كلام السكاكي، نجد في كلامه (لا يتيسـر الكلام فيهما إلا بترك التحقيـق والتعيين)،أي: إنه لا يمكن الحكم على أن هذا المقـدار من الكلام بأنه (إيجاز أو إطناب)، فرب قول موجز يكون مطنباً بالنسبة إلى قول آخر ، وبالعكس. وبذلك وجب الرجوع في بيان معناهما إلى القياس على " متعارف الأوساط ، وإنه في باب البلاغة لا يحمد منهم ولا يذم "(5). وبذلك يكون الأساس في عرض الكلام أن يكون متعارفا بين الناس، فإذا زاد الكلام عنه عد (إطنابا) أما إذ نقص الكلام عد

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر : مفتاح العلوم : 416.

(\*) ويعني به التعقيد اللفظي ، أما التعقيد المعنوي، خلوص الكلام عنه، ويدخل عنده في البلاغة لا في الفصاحة.

(2) مفتاح العلوم : 416.

(3) الإيضاح في علوم المفتاح : 5/ 180.

(4) مفتاح العلوم :276.

(5) م . ن : 276.

(إيجازا) إذا من الصعب – برأي السكاكي- أن نحَّدد القول بأنَّ هذا الكلام إيجاز وذاك إطناب إلا بالرجوع الى (متعارف الأوساط)، وهو في عرف العسكري، والنقاد السابقين أقرب (للمساواة)، يُثبتُها من أجل أن يصلَ إلى حقيقة الإيجاز، والإطناب، فهي قسمة عقلية، يتعرف من خلالها على نوع الكلام (موجزا كان أم مطنبا). وبذلك لا يختلف عن العسكري في هذه القسمة وإن كان الخلاف بينهم في( الأسم) لا في (المسمى)؛ لأن العسكري عدها " المذهب المتوسط، بين الإيجاز والإطناب ..."(1).

إذن: هي عند السكّاكي (واسطة)، لكنه يجعلُها في البلاغة غير محمودة، وغير مذمومة؛ لكونه من كلام العامة البعيدين عن مراتب الفصاحة، والبلاغة، و- هنا- يختلف مع العسكري الذي جعلها محمودة حين يوفى المعنى، مثله مثل الإيجاز، فهو محمود حين يوفي المعنى أيضا، ومذموم حين يخل به أو لايؤديه بصورة تامة، وكذلك الإطناب محمود إذا كان مفيدا أو مذموم إذا كان تطويلا يدفع الى الضجر، ودل على ذلك بعرضه لشواهد من القرآن الكريم، وقال أن " مثله كثير" (2) .

ومع تتبعي (للإيجاز والإطناب ) عند السكاكي و هو " إداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوساط، والإطناب: هو أداؤه بأكثر من عباراتهم ، سواء كانت القلة أو الكثرة راجعة إلى الجمل أو غير الجمل "(3)، أجد أن مفهومهما، وإن اختلفت في صيغ التعبير لا تبتعد عما ذكره العسكري بالنسبة (للإيجاز) كونه تكثيف المعاني في الفاظ قليلة، أما (الإطناب) فهو زيادة اللفظ على المعنى لفائدة، و(المساواة) بمعنى تأدية المعنى المراد بعبارة مساوية له وبذلك أجد أن العسكري يرسي قاعدة سليمة، وأساسا متينا لا ينبغي أن يختلف فيه اثنان؛ كونها حقيقة متعارف عليها .

**ج – التشبيه :**

لم يحلق السكاكي بعيدا في خطابه عن التشبيه فيما ذكره العسكري من قبل وإن إختلفا في مسلكيهما، إذ نجد السكاكي يمثل فـي مفتاحه العالم الذي يعتمد اسلوبا منطقيا وعقليـا؛ ليهدف مـن

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كتاب الصناعتين : 162.

(2) م .ن : 162.

(3) مفتاح العلوم : 277.

ذلك الى ارساء قواعد وأسس لعلوم البلاغة، ويدلل على ذلك عنوان كتابه (مفتاح العلوم ) إذ عد فنون البلاغة بأصنافها الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) علوما، وهوبذلك يبتعد عن العسكري في صناعتيه الذي يعتمد فيها إسلوب الأديب المرشد إلى تعليم مهارة فنية أساسها الذوق الفني والجمالي .

وفي التشبيه يخاطب المتلقي بأن القدامى قد خاضوا في تفصيلات هذا الفن؛ لأن المتلقي بطبيعته الثقافية والمعرفية الناشئة من أطلاعه على مصنفات السابقين، عرف (اركان التشبيه) التي سبق ذكرها في تضاعيف تلك المصنفات ﻓ : " لا يخفى عليك أن التشبيه مستدع طرفين، مشبها ومشبها به واشتراكا بينهما من وجه، وافترقا من آخر " (1). إلا إنه يعيد ذكرها (للمتلقي) المتعلم تحت مسميات إصطلاحية تعليمية مكتفيا بتحديد ما للتشبيه من أركان ، وهي: (المشبه ) و(المشبه به) و(وجه الشبه )، ولا علاقة له بأثرها في بلاغة النص أو مقدار ما تحققه من جمالية، وهذا الأركان نجد صداها في خطاب العسكري إلا أنه أهتم بها من الجانب الوظيفي بقوله : " الوصف بأن أحد الموصوفين ينوب مناب الآخر بأداة التشبيه ناب عنه أو لم ينب"(2)، والعسكري اكثر دقة؛ لأنه حدد أركان التشبيه بصورة تامة ، في جعله :

**التشبيه(الوصف)= المشبه و المشبه به (الموصوفان)+ أداة التشبيه + وجه الشبه (ناب عنه أو لم ينب).**

أما السكاكي فلم يذكر أداة التشبيه وإنما قال: " إنما المحوج هو تفصيل الكلام في مضمونه، وهو طرفا التشبيه ووجه الشبه والغرض في التشبيه وأحوال التشبيه، ككونه : قريبا أو غريبا، مقبولا أو مردودا "(3)، ويؤيد قول العسكري بأن التشبيه إذا كان في جميع الوجوه كان الطرفان شيئا واحدا اي حصول (تماثل تام) بين الطرفين ؛ لذلك أوجب بضرورة وجود عناصر تمايز وتفارق بينهما حتى يكون التشبيه سليما .

و لم أغوص عميقا في مفتاح السكاكي ومن حذا حذوه (\*) ؛ لبعده المنهجي – كما أشرت آنفا – عن صناعة العسكري، إذ لم ينظرالى( التشبيه، والإستعارة، والكناية) بوصفها فـنونا أدبيـة، تقـوم

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح العلوم : 332 .

(2) كتاب الصناعتين : 213.

(3) مفتاح العلوم : 332 .

(\*) من المتأثرين بمنهج السكاكي : المصباح في المعاني والبيان والبديع، وتلخيص المفتاح ، والإيضاح ، و عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، والمطول في شرح تلخيص مفتاح العلوم .

على نظرة فنية تعتمد التحليل، و لم يفتش في خبايا النصوص وما تحدثه هذه الفنون من أثر جمالي تضفيه على نفسية المتلقي، بل عمد الى البحث فيها عن قواعد لا تعينه في أغلب الأحيان على تذوق الإسلوب، وإذا ما أورد نصوصا كان مجيئها؛ لإثبات قاعدة واستقصاء أقسامها، وهو في دراسته لا يمثل غصنا من شجرة الدرس الأدبي موازنة مع كتاب الصناعتين – خاصة- في طريقة تناوله لهذه الموضوعات، وطريقة معالجته الأدبية .

**ﮬ - البديع :**

اقترب السكاكي في منهجه لدراسة علم البديع من منهج العسكري إذ حد كل لون من ألوان البديع، موشحا إياه باستشهادات قرآنية، وأدبية، على الرغم من جعله (علما) إلا أنه لم ينظر اليه بشكل مستقل عن علم المعاني وعلم البديع، وإنما ألحقه بهما بقوله: " وإذا تقرر أن البلاغة بمرجعيها وإن الفصاحة بنوعيها، مما يكسو الكلام حلة التزيين، ويرقيه أعلى درجات التحسين، فههنا وجوه مخصوصة، كثيرا ما يصار اليها، لقصد تحسين الكلام، فلا علينا أن نشير إلى الأعراف منها"(1)، على اعتبار أن فنونه وما ينضوي تحته من الظواهر البلاغية تتساوى مع غيرها من الظواهر التي تكسب الكلام حسنا ومزية، إذ لم يجد وفق منهجه مكانا لهذه الفنون، فاختار أن تكون مطلقة من قيود (العلم)على أنها محسنات يكون الهدف الأول منها هو (التزيين والتحسين الفني)، ويقول: " وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني، لا أن تكون المعاني لها توابع، أعني: أن لا تكون متكلفة"(2)، وهو في ذلك يتابع العسكري بقوله: " إن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف، وبرئ من العيوب، كان في غاية الحسن، ونهاية الجودة"(3)، وهو المقياس الذي يشترطه العسكري وللسكاكي لجودة تلك الفنون وغيرها، فكي يحسن الكلام وجب أن يسلم من التلكلف والإعتساف . ونخلص من هذا أن السكاكي لم يخرج عن العسكري في :

* المنهج الذي أختطه في عرضه لفنون البديع إذ – كما ذكرنا سابقا- ابتدأ بحد كل فن من تلك الفنون مسندها بتقديم الشواهد القرانية والأدبية التي تبرز الوجوه التي تسهم في إضفاء الحسن البلاغي على الكلام .

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح العلوم : 423.

(2) م . ن : 432.

(3) كتاب الصناعتين : 239 .

* الخلط بين الظواهر البلاغية التي هي في الصميم من علم المعاني، وقد صرح عنه، بقوله:" ومنه الإلتفات، وقد سبق ذكره في علم المعاني. ومنه تقليل اللفظ ولا تقليله : مثل: يا وهيا، وغاض، وغيض، إذا صادفا الموقع. ويتفرع عليهما الإيجاز في الكلام والإطناب فيه وقد سبق ذكره"(1)، حاول السكاكي ترسيخ صلة وشيجة بين (علم البديع) وبين علمي (المعاني والبيان)، بجعله المدار في العلمين وما يلحق بهما على تحسين الكلام وتزيينه .

لم يعد (البديع) علما مستقلا عن علوم البلاغة ،على الرغم من إن قلمه لم يخط اسم (بديع) في مفتاحه لعلوم البلاغة، ولكنه، وإن لم يفرد لها علما مستقلا، فتح باب الحصر، والأستقصاء، والتقعيد لهذه الفنون، وهذا الصنيع لم يكن بعيد عن العسكري، إذ أن مدلول (البديع) أخذ يقترب من التخصص على يده؛ وذلك بعده باب (الإيجاز، والإطناب، والمساواة، التشبيه، السجع، والإزدواج) خارج أنواع البديع(2) .

أما أوجه الخلاف فيمكن إجمالها فيما يلي :

* يقسم السكاكي المحسنات البديعية الى (معنوية، ولفظية)، بقوله: "وهي قسمان : قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع الى اللفظ"(3)، على العكس من صنيع العسكري الذي كان يوردها مختلطا بعضها ببعض.
* لم يتوسع السكاكي في ذكر المحسنات البديعية، إذ أكتفى بذكر الأهم، والأعرف منها جميعا، والتقى في بعضها مع العسكري التي منها :

المطابقة **:** أتفق السكاكي مع العسكري في إسم هذا اللون البديعي، إذ اكتفى بحدها قائلا:" وهي أن تجمع بين متضادين "(4)، ممثلا لها بشواهد قرآنية من دون أن يشير إلى موطن الشاهد، إلا أن العسكري كان أكثر توسعا منه في عرضه لهذا اللون .

المقابلة **:** أختلف السكاكي مع العسكري في مفهومها، فقد حدها السكاكي بقوله : " وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثـر وبين ضديهما، ثـم إذا شرطت هـنا شرطا شرطت هنـاك ضـده "(5)،

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) مفتاح العلوم : 429.

(2)ينظر: الصناعتين : 157،213، 233.

(3) مفتاح العلوم : 423.

(4) م . ن : 423.

(5) م . ن : 424 .

والعسكري لم يشترط في المقابلة بين شيئين متقابلين وبين ضديهما بل جعل إيرادها " على جهة

الموافقة أو المخالفة"(1)، مقسمها على قسمين: ما كان في (المعنى )، وما كان في (اللفظ)(2).

التقسيم **:** وحده السكاكي، بقوله: " هو أن تذكرشيئا ذا جزأين أو أكثر، ثم تضيف إلى كل واحد من أجزائه ما هو عندك "(3)، وتقسيم السكاكي يحوطه نوع من الغموض، والإبهام إذ لم يوضح حجم الاضافه التي تزاد الى الجزئين بشكل جلي للقارئ، ولم يسنده بأمثلة تفسر هذا الغموض، والتقسيم الصحيح ما فسره العسكري(4)، كاشفا عن مواطن الحسن، والردائة بما قدمه من عرض لنصوص شعرية، ونثرية تساعد القارئ على فهم هذا اللون، والإحاطة به من كل جوانيه.

الإعتراض: يختلف السكاكي مع العسكري في مفهوم الدلالة، فيسميه (حشوا)، ويحده بقوله: " هو أن تدرج في الكلام ما يتم المعنى بدونه "(5)، أما الإعتراض عند العسكري فهو " إعتراض كلام في كلام لم يتم، ثم يرجع إليه فيتمه " (6) .

الإلتفات **:** لم يحده السكاكي كلون من ألوان البديع مكتفيا بإشارة منه الى أنه قد أورد ذكره في علم المعاني، الذي حده بقوله :"واعلم أن هذا النوع، أعني نقل الكلام عن الحكاية الى الغيبة، لا يخص المسند اليه ولا هذا القدر بل الحكاية، والخطاب، والغيبة ثلا ثتهما ينقل كل واحدة منهما إلى الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتا عند علماء علم المعاني، والعرب يستكثرون منه، ويرون الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب، أدخل في القبول عند السامع ..."(7)، أما العسكري فلم يختلط عنده الأمر إذ عده محسنا بديعيا له وقع في الكلام، أفرد له فصلا سرد القول في أقسامه(8).

التجنيس **:** أتفق السكاكي مع العسكري في دلالة المفهوم بأنه:" تشابه الكلمتين في اللفظ"(9)، إلا إن السكاكـي زاد فـي باب إستحسان هذا اللـون، عـاداً انوعـا لـم يرد ذكـرها تحت (مسميات) فـي

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) كتاب الصناعتين : 304.

(2) م .ن : 304.

(3) مفتاح العلوم : 425.

(4) كتاب الصناعتين : 308.

(5) مفتاح العلوم : 428.

(6) كتابالصناعتين:360.

(7) مفتاح العلوم :199.

(8) ينظر :الصناعتين : 358.

(9) مفتاح العلوم : 429.

تجنيس العسكري، ومنها : (التجنيس التام، والتجنيس الناقص، والتجنيس المذيل ، التجنيس المضارع أو المطرف، التجنيس اللاحق، التجنيس المشوش )(1)، وهذه الأنواع وإن لم يذكرها العسكري تحت هذه المسميات، إلا أنه صنفها مقسما إياها إلى أنواع منها:

ما تكون الكلمة تجانس الأخرى لفظا واشتقاق معنى(2)، وهذا النوع اصطلح عليه السكاكي (التجنيس التام)، ومنه ما يجانس في تأليف الحروف دون المعنى(3)، وهو ما اصطلح عليه السكاكي (التجنيس الناقص)، ومن التجنيس ضرب آخر، هو أن تأتي بكلمتين متجانستي الحروف إلا أن في حروفها تقديما وتأخيرا(4)، لم يصنفها السكاكي ضمن ضروبه . ومن التجنيس نوع آخر يخالف ما تقدم بزيادة حرف،وسماه العسكري ﺑ (التجنيس المذيل) ويكمل العسكري هذا النوع بقوله: " بزيادة حرف أو نقصانه "(5)، ويسميه السكاكي (التجنيس اللاحق)، أما في رد الأعجاز على الصدور فقد اختلف فيه مع العسكري - الذي أفرد له فصلا مستقلا - بعده نوعا محسنا ينضوي كنوع من أنواع التجنيس في قوله: " ومن جهات الحسن رد العجز الى الصدر "(6 )، إلا أنه لم يخالف العسكري في مضمونه، وأنواعه (7) .

ومن اللافت للنظر إن السكاكي في نهجه التعليمي لفنون البديع التي اقتصر منها على عشرين فنا، وجدها الأكثر تأثيرا في تحسين الكلام لفظا ومعنا نجد :

* إنه لم يعرّف بكل الفنون، فقد أجد بعضها مثل: (الجمع مع التفريق، والتقسيم، تأكيد المدح بما يشبه الذم، سوق المعلوم مساق غيره، تقليل اللفظ ،ولا تقليله، الأسجاع )(8)، لم يقدم لها حدا مميزا، مكتفيا بتقديم شاهد شعري لبعض منها، من دون أن يعليق عليه.
* إنه لم يزد في شرحه للمحسنات فنونا جديدة على من سبقوه مثلما صنع العسكري من زيادة فـي هـذا المضمار، ويصـرح عنها بقولـه:" وزدت على ما أوردوه المتقدمون ستـة

\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_\_

(1) ينظر : المفتاح : 429-430 .

(2) ينظر : كتابالصناعتين : 289.

(3) ينظر : م . ن : 289.

(4) ينظر :م . ن : 298.

(5) ينظر : م . ن : 298 .

(6) ينظر : م . ن : 298 .

(7) مفتاح العلوم: 430.

(8) ينظر : مفتاح العلوم :430-431و كتاب الصناعتين : 351-353.

أنواع ..." (1) .

وإذا كان لي أن أدلو بدلوي في هذا المضمار، أقول أن قصر وظيفة (البديع) على التحسين الجمالي للكلام فقط، أمر مردود؛ لأن أكثر فنون البديع يظهر الحسن فيها لما تقدمه من وظيفة في الإبلاغ والتوصيل، وما ترميه من تحقيق إثارة لفكرالمخاطب، والأديب بذائقتة الفنية، هو من ينتقي هذه الفنون لصياغته، مثلما ينتقي المسائل النحوية لعباراته، والصورة البيانية لصوره، شريطة أن لا يكون الإنتقاء قسر في الكلام مما يدخله في باب التكلف وهذه المسألة أجمع النقاد عليها- كما ذكرنا سابقا- والنتيجة التي نخرج بها هي أن البديع يدخل مكملا للمعاني والبيان ليحقيق هدف يرمي اليه هو (الحسن البلاغي للكلام وتزيينه)، لكن وإن كانت تلك العلوم الثلاثة تدور حول هذا المحور، وإن اشتركت ايضا فيما بينها بنوع المعالجة، يجب الفصل بينها، لما يختص به من إداء وظيفي يختلف فيه عن (المعاني والبيان)، لذلك أقف مؤيدة العسكري في صنيعه البديعي وما إختطه لها من منهج ينفرد في التميز به عن سواه ، فقد كان في إدارة سفينة (البديع) ملاحا بارزا؛ لكونه عرض بذائقتة الفنية التعليمية لصناع الأدب عددا كبيرا من هذه الفنون مع أنها كانت شائعة في عصره، شارحا، وموضحا، ومشذبا، ومهذبا(2) .